"مستويات التناص" بين جمال الغيطاني وابن عربي
فواصل من " كتاب التجليات"

The levels of intertextuality between Djamel El Ghitani and Iben Elarabi
in the book " Eltadjaliate"

الدكتور: عبد القادر ميسوم
a.missoum@univ-chlef.dz
قسم الأدب العربي -كلية الآداب والفنون- جامعة حسيبة بن بوعلي – الشلف (الجزائر)

تاريخ الإرسال: 2019/02/24 تاريخ القبول:2019/02/27 تاريخ النشر: 2019/03/19

الملخص: يحاول جمال الغيطاني الروائي المصري، من خلال تجربته مع الحكي أن يقيم صرحا من الكتابة لا تجف ولا تذوي، وهذا ما قاده إلى تطعيم نصوصه بتأملات وأشعار ونصوص منتقاة لها عبق التراث. فكان الخطاب الصوفي يتخلل معمار اللغة والسرد بنبرات متعالية ومتفاوتة، تقود إلى نوع من اليوتوبيا المفرطة، تحمل علامات موصوفة عن هواجس ذات لا تتردد في تمعن ومحاكاة نصوص سابقة لتحقق ما يمكن أن نطلق عليه بـ "التناص" الذي قد يحمل على أنه من مظاهر الحداثة النصية.

الكلمات المفتاحية: التناص; المدونات التراثية; الخطاب الصوفي; الخطاب السردي ; التجليات.

Abstract :*The Egyptian novelist Jamale El Ghitani tries throughout his narrative experience to erect an edifice of writing that cannot fade nor wither, and this is what led him to infuse his texts with contemplations and poems rooted in traditional heritage. The narrative discourse stated to infiltrate through language and narrative in an arrogant and tone that leads him to a kind of exaggerated utopia. It carries elements personal trauma that does not hesitate in imitating the previous texts that can be called intertextuality which one of the aspects of modernity of texts.*
Key words: *intertextuality ,traditional heritage; narrative discourse; infiltrate; Eltadjaliate.*

مقدمة

إن إشكالية الكتابة والتناص مع الخطاب الصوفي في "كتاب التجليات" تحدد منذ البداية كنسق من الانعطاف يستوجب التأكد من كونه هما إبداعيا لدى الغيطاني، وبالتالي كيف تحول هذا النص السردي بموجب هذا التداخل الغريب إلى إشراقات صوفية نافذة في عمق الروح تنبثق لحظة الكتابة؟ وتحمل عبق اللغة الشعرية الصوفية، الدالة على أن الكاتب قطع أشواطا في مكتبة التراث الصوفي حتى وصل بنبرة الخطاب إلى مدارج التجلي، ففي خطاب التجليات ضروب من المعاني تستغلق على من يحاول معالجتها بأدوات محدودة وفهم مغلق.

ستكون محاولتنا " قراءة تناصية في كتاب التجليات " محطة نكشف من خلالها رحلة الغيطاني في عالم المتصوفة عامة ومع لغة ابن عربي خاصة في مصنفيه (كتاب التجليات) /(الإسرا إلى مقام الأسرى) للوقوف على طبيعة هذه الكتابة التي تشير ولا تصرح وتتعامل مع الأسلوب في أعلى مستوياته الخيالية. وهنا يصبح التناص حقيقة لا ريب فيها. فلئن مثلت هذه الكتابة السردية لونا من المقدرة الشعرية، فإنها تروم إلى إطلاع المتلقي على بعض خفايا الخطاب الصوفي الذي حضر في النص على هيئة "نصوص مبتورة، أو نقول أمينة" أو علامات تطرز الشكل وتتمرد على القوالب ولا تبالي بالنظريات ضمن محطات الوصف والسرد، إنها مغامرة تقدم عالما بديلا أو موازيا للواقع من خلال لغة الوجود/ ولغة الإشراق المحملتين بالحنين والكشف والتجلي.

البدايات :(حدود المصطلح)

دون الدخول في متاهة التحديد الدقيق لتاريخ نشأة مصطلح " التناص" كمفهوم يعني تفاعل النصوص وتعالقها بكيفيات مختلفة، فقد أورد محمد خير البقاعي" أن كلمة " التناص" اخترعتها -إن استطعنا القول- (جوليا كريستيفا) في كثير من المحاولات المكتوبة بين عامي 1976/1966 حيث ظهرت في مجلة Tell quell ومجلة critique التي أعيد نشرها في semiotic وفي كتابها " نص الرواية" وفي التقديم لكتاب دوستوفيسكي لباختين"[1] وقد جاراها بعد ذلك كوكبة من الأقلام من ذوي الاختصاص من أمثال (لوتمان/ ريفاتير/ رولان بارت/ مارك أنجينو..) وغيرهم.

إنها بدايات التقعيد لمصطلح " التناص" الذي كان يعني أن النصوص الأدبية تقيم حوارا فيما بينها، وأنها ليست بريئة وليست سكونية، بل هي دائما حاملة لحركية خطابية بين خطاب الآخر(نصوص غائبة) وخطاب الأنا (الكاتب)، والقارئ هو الذي يلاحظ هذا التفاعل، كما تصر كريستيفا على تأكيده في تعريفها التالي، الذي لا غنى لدارس مصطلح التناص من الوقوف عنده محنكا كان أو مبتدئا فلقد كتبت معرفة إياه كالآتي:" إن التناصية هي أن يتشكل كل نص من قطعة موزاييك من الشواهد، وكل نص هو امتصاص لنص آخر أو تحويل عنه"[2] فمع الباحثة النص ليس نظاما لغويا مقفلا كما يزعم الشكلانيون الروس، وكما روج ذلك تودوروف في أكثر من إصدار(الكتابة في درجة الصفر/ لذة النص..) سعيا من وراء هذه العناوين إلى اقتراح قراءة بنيوية تختزل النص.

فالتناص واحد من المفاهيم الحديثة التي نجد لها البذور الجنينية الهامة في نقدنا العربي القديم " فقد عني النقد العربي بالكشف عن (سر الصناعتين) و(عيار الشعر) و(أسرار البلاغة) و(دلائل الإعجاز)، حتى يكون النقد منهجا للبلغاء وسراجا للأدباء يعرفون به أحكام صنعة الكلام وطبيعة المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ويتمكنون عبره من الكشف عن مساوئ الشعر ومحاسنه ومن الإبانة عن السرقات والوساطة بين الشاعر ونصوصه أو الموازنة بينه وبين معاصريه أو سابقيه"[3] وفي هذا الجرد المحدد تنكشف لنا رؤى النقد القديم التي ساهمت بإعطاء كشوفات خصوصية مميزة أخلطت الجانب المفاهيمي لمصطلح التناص.

إذن فقد اهتم النقاد القدامى بالشكل، وجعلوا النص مدار اهتمام التجربة النقدية، قبل أن تعرف الساحة النقدية العربية المعاصرة حقولا محاذية وموازية تنازع مجال التناص، في حركية تفاعلية قائمة على الأخذ والرد ما بين النصوص، ولا غرو في ذلك مادام أن زمرة من النقاد ك (ابن سلام الجمحي، وابن قتيبة، وابن المعتز وعبد القاهر الجرجاني) تمكنوا من عقد الموازنات وفرز الدخيل والمتحول، وتتبع شتى صور السرقات في وقت مبكر من تاريخ هذا النقد، وهنا سنكتفي بإثارة أكثر من دائرة جدل فيما يخص هذا المصطلح ضمن كتاب " عز الدين المناصرة الموسوم بـ"علم التناص المقارن" كونه في نظرنا يقدم رؤية شمولية عن مصطلح التناص وتقلياته .

من باب الحرص على مد مصطلح" التناص" بنفس جديد وإخراجه من فوضى المفاهيم والاستعمالات(منهج عنكبوتي تفاعلي) سيبادر عز الدين المناصرة في كتابه المذكور آنفا إلى استكناه شتى المفاهيم والتصورات التي التصقت بهذه الظاهرة عند النقاد العرب القدامى، فمفهوم (السرقات الشعرية) يعني (التلاص)، ويستكمل

تمحيصه في الفصل الخامس من الكتاب ليتعقب مصطلح "التناص" في النقد الحديث، وسيتيح لنا هذا الكتاب فرصة شائقة ونحن نمعن النظر في ضروب المقاربات التي أثارت هذه الظاهرة في مجال الشعرية الحديثة في اتجاه العمق والتدقيق.

ولا نريد أن نسترسل هنا في تحديد كل الإسهامات التي ذكرها الباحث في كتابه، إنما سيكون تركيزنا على ما طرحه من أفكار تصل من قريب بموضوع " التناص" كظاهرة أدبية ونقدية اهتمت بالنص في تعالقه مع النصوص السابقة، أو المعاصرة له، لأننا أردنا أن نسوقها كمدخل لتعقب هذا المصطلح وتبين خيطه الأبيض من خيطه الأسود في متن كتاب التجليات بين ابن عربي والروائي المصري " جمال الغيطاني".

التناص (في النقد العربي القديم)

يطرح عزالدين المناصرة عينة أساسية لفهم الكيفية التي تناول بها النقاد القدامى موضوع السرقات الشعرية، مرجعا أسباب الاختيار إلى كثرة التشابهات في تناول موضوع السرقات إلى درجة التكرار وحتى يتمكن من إبراز الفروقات بين المفاهيم والاستعمالات، يتناول ثلاثة عشر ناقدا يراه أساسيا في الموروث النقدي من مختلف القرون وهم:(الجمحي 232هـ، ابن قتيبة 276هـ،

المهلهل، بنيموت334هـ،الآمدي370هـ،المرزباني384هـ،الحاتمي388هـ القاضي الجرجاني395هـ،العسكري395هـ،الثعالبي429هـ،العميدي433هـ،ابن،رشي القيرواني456هـ، عبد القاهر الجرجاني471هـ) حيث أسفرت قراءاته عن جملة من الملاحظات تكاد تكون الإطار المشترك لحركة النقد القديم، الذي كان إعجابا هلاميا بالصور والمجازات أو شغفا انفعاليا بالأسلوب أو أحكاما انطباعية لا تبررها غير شطحات المزاج وتذبذباته ولا يفيد القارئ أو المبدع شيئا.

إن من المصطلحات التي تدخل في باب السرقات الشعرية وما يتصل بها (الاقتباس ، التضمين، الغصب، الإغارة ، والاختلاس ، التلميح)[4] كما قدم النقد القديم تبريرات نقدية لتسويغ السرقة ونقيضها، وميزوا بين السرقة الظاهرة والإخفاء الذكي، وكانوا يمتدحون الإخفاء لأن الشاعر يكون عندئذ أكثر قدرة على الامتصاص والتحويل والتغيير ومنحوا السرقة الجميلة شرعية الحق في البقاء إلى درجة محو النص الأول، بل وصلوا إلى درجة جعل السرقة (التلاص) فنا ملحقا بعلم البديع البلاغي" وهذه الأنواع ونحوها أكثرها مقبولة، ومنها ما أخرجه حق التصرف من قبيل الأخذ والإتباع إلى حيز الاختراع والابتداع، وكل ما كان أشد خفاء كان أقرب إلى القبول"[5] وفي حدود هذا يقف التصور النقدي القديم لمفهوم التناص معادلا للسرقات الشعرية عند جملة من المصطلحات[6]، بوصفها درجات رسمت حوار النصوص المتداخلة، إيذانا بتشكل ملامح التناصية بالمفهوم الحديث. والحال أن مثل هذه المصطلحات تقدم لنا نقطة انطلاق جيدة وإن كانت في جانب السرقات الشعرية، كما أن الخوض في قراءة تناصية دون مهاد نظري يجعل طريقنا صعبا نظرا لأزمة المصطلح التي تعانيها البحوث الأكاديمية ودور الترجمة، ومرة أخرى أرغب في الإنابة إلى استنتاج هام يتجلى بتعبير يحمل بشكل صريح موقف " عز الدين المناصرة" في كتابه علم التناص المقارن، ففي نظره أن " الفجوة الهائلة بين النقد العربي القديم والنقد العربي المعاصر، ساهمت في انقطاع كبير وجعلت النقد العربي تابعا لمفهوم -

التناص- الأوروبي بدلا من محاولة تطوير مصطلحات النقد القديم"[7] لأن انتقال النظريات والمفاهيم من الفكر الغربي إلى التصور العربي يعد مغامرة محفوفة بالمخاطر.

التناص (في النقد العربي الحديث والمعاصر)

من المعروف جدا أن نظرية " التناص" كمصطلح في بادئ أمره، كان يعني تلك التقاطعات بين النصوص من غير قصد وبكل عفوية عند البعض، ولكن من منظور فئة أخرى يكون مقصودا وبالتالي فهو يقارب مفهوم (التأثر والتأثير) في مجال المثاقفة الذي اعتنى به " علم الأدب المقارن"، بل أن مفهوم " التناص" فوق هذا وذاك يبقى ظاهرة مستجدة في النقد العربي المعاصر تأبى أي تسييج اصطلاحاتي وفي هذا الجرد الذي سيأتي سنبين معترك الصراع المفاهيمي الذي شهده المصطلح، عبر الانعراجات الحاصلة لأبعاده المتداخلة في النقد الأدبي.

وفيما يلي رصد لأهم المفاهيم المتعلقة بـ "التناص" كما يتبدى من سياق ما جاء في كتاب " علم التناص المقارن" لأنه يقدم -حسب رأينا- لائحة من الدراسات تطرح شبكتها ليس لتوسيع المفهوم بل لإخضاعه لتراتبية تستمد وجودها من منطلقات ومرامي " كريستيفا" ببدائل مقترحة هي كالتالي:

- محمد بنيس استخدم (النص الغائب 1979) ولا حقا استخدم (التداخل النصي 1989)
- محمد برادة ترجم المصطلح بـ " التناص 1982)
- صبري حافظ استخدم (التناص) و(الترسيب)[1] و(تفاعلية النصوص) 1984
- محمد مفتاح (التناص) و(التفاعل) و(التعالق النصي) 1985
- استخدمت مجلة الفكر العربي المعاصر (التناص) 1989 في عدد خاص
- عبد الواحد لؤلؤة استخدم (التناصيص 1991) .
- سعيد يقطين استخدم (التناص) و(الترابط النصي)[8].

ففي مضمار فهمنا وتصورنا، يبدو أن تشخيص الداء يستلزم منا اقتراح البدائل التصورية، ويبدو أننا بحاجة إلى مراجعة خريطة هذا المفهوم كبقية المفاهيم، ومن ثم تخليص حقل اشتغاله من الكثير من الشوائب، ولا غرو في ذلك ولا ضرار ما دامت حقول البلاغة خضرة ندية، ونستطيع القول أن "التناص" قدر لا مفر منه في كل فعل كلامي وكتابي لأنه مرتبط بفعل القراءة.

مغامرة الكتابة والتناص عند جمال الغيطاني:

في خطاب التجليات ضروب من المعاني التي تستغلق على من يحاول معالجتها بأدوات محدودة وفهم مغلق، فالكشف الباطني الذي هو محل تكثيف شديد مقصود من قبل " جمال الغيطاني" الذي ظل طوال سيرته الأدبية ومغامرته الكتابية يصر على ترميز لغته في تقديم أشكال جديدة للرواية المصرية والعربية، وحتى لا تكون كتاباته خانعة من باب المحاكاة لنظيرتها في الغرب، فهذه الرواية تشكل في نظر صاحبها معبرا لغويا لتقريب محتواها من محتوى الأسطورة إلى جانب سلسلة إبداعاته التي بدأت مع " أوراق شاب عاش منذ ألف عام" إذ ليس من الصدف أن يقسم متن الرواية إلى أسفار في رحلة أدبية وتخييلية تتمحور حول الذات

من المهد إلى اللحد، حين لا يسعف الذهاب بطريقة مباشرة، ولقد برهن النص عن تلك الرغبة أو التجربة العاطفية الغائرة في إيماءات حكائية وربما هذا ما جعل الموضوع ينفتح على موضوع الكتابة والتناص لاستشراف عوالم السرد التي تتجاوز المكان والزمان وقبل البدء يستوجب التأكد المسبق من كون أن تجربة الكتابة عند الغيطاني في هذا النص تمثل بالفعل نوعا من القطيعة مع خصائص الأجناس السردية المتداولة.

يتحتم علينا معاينة هذا النص من مؤشراته (الخارج نصية) و(النصية) وبالطبع فإن ما نريد قوله من هذه البسطة الوجيزة هو معاينة " كتاب التجليات" من خلال " قراءة تناصية" نستكشف من خلالها تلك الدورة التي قام بها الغيطاني في عالم المتصوفة / خطاب المتعالي للوقوف على طبيعة هذه الكتابة التي تشير ولا تصرح وتتعامل مع اللغة في أعلى مستوياتها الخيالية، بل إننا نشاهد أحيانا مقاطع خاصة بمؤلف أو مفكر فلسفي معين أو متصوف(ابن عربي)في كتابيه (الفتوحات المكية) و(الإسرا إلى مقام الأسرى). " فشهادة الروائي أو حديثه عن تجربته في كتابة الرواية يدخلان ضمن نصوص الكاتب وإن كانت لهما طبيعة مغايرة، وسمي هذا النوع من الكتابة بالمناص الخارجي وهو النص الموازي الذي يكتبه الروائي على هامش نصوصه، مجليا طريقته في الإبداع الفني وفهمه له،... مدافعا عن تصوره الإبداعي وكاشفا عن بعض أوراقه الخاصة أو السرية التي لا تتضح في أغلب الأوقات للقارئ غير المتأمل أو حتى للناقد"[9] كما هو الحال مع هذه الأقوال التي يتعذر علينا تخطيها .

يقول **جمال الغيطاني**:" هناك باستمرار محاولات لتجاوز التقاليد والأشكال الفنية السابقة وهذا يقتضي جهدا كبيرا على سبيل المثال عندما بدأت دراسة أسلوب المتصوفة لم أكتف بقراءة الفتوحات المكية لابن عربي أو الإنسان الكامل لعبد الكريم الجيلاني أو الإشارات الإلهية للتوحيدي، إنما أنقل بخطي صفحات كاملة من هذه المؤلفات على مهل وبأناة لا لشيء إلا لمحاولة تشربي لسر الأسلوب ونفاذه إلي"[10] ولا يخلو موضع من دون أن يصرح فيه عن مغامرته الكتابية التي صارت بوجه من الوجوه من شأن النص وخصوصيات الابداع، فلئن مثلت هذه الكتابة لونا من المقدرة الشعرية، فإنها تروم إلى إطلاع المتلقي على بعض خفايا الخطاب الصوفي الذي حضر في النص على هيئة " نصوص مبتورة، ونقول أمينة" أو علامات تطرز الكتابة وتتمرد على القوالب ولا تبالي بالنظريات ضمن محطات الوصف والسرد، إنها مغامرة تقدم عالما بديلا أو موازيا للواقع من خلال لغة الوجود/ ولغة الإشراق، يقول الباحث إبراهيم فتحي:" للتجربة الصوفية في التجليات الخصائص العامة نفسها للتجربة الصوفية عموما مثل : الإحساس بالأبدية، الاتجاه نحو المطلق، التحرر من المعاناة ومن الطابع الجزئي للذات"[11]

يستعرض " الغيطاني" عدته المعرفية ويصف طقوسه ونزواته مع القراءة وفعل الكتابة عندما يستعرض تلك النصوص الاستثنائية (القرآن/ الحديث/ كتب المتصوفة/ الشعر العربي..) فقد توغل في بعض نصوص " الفتوحات المكية" وانصهر معها من خلال اللغة، إذن نحن إزاء عالم سردي تشارك الحروف والكلمات والصياغات وكافة أشكال التعبير في جعله خاصا ويفصح عن معان غريبة، فصرح تارة عن حالة، ورمز أخرى عن حال وأشار طورا عن مقصود ولا ننكر التلميحات التي كتبت في حالة من النشوة الكاملة والتوهج الفني،

وهذا ساهم في وجود كم غير محدود من الدلالات جعل انتماء " كتاب التجليات" إلى الخطاب الصوفي قدر محتوم، إلا أنه يعد نصا مستقلا بكل المقاييس في نظرنا حيث يتناص مع نصوص غائبة لكنه يتمتع بملامحه الخاصة فتوظيف الغيطاني " في التجليات للحكاية الصوفية وللكرامات وبعد ذلك للغة الصوفية كالمفردات ذات المدلولات الصوفية مثل: الكون / العدم/ الفناء/ الفراق/ الكشف/ المجاهدة/ السعي/ المشاهدة/ الاتحاد/ التجلي..."[12] يجعل النص يتعالى عن المعقول باستمرار ويكون له مع ابن عربي شأن خاص. فهو ذلك الحاضر الغائب عبر علاقة "تناصية" تتوغل في نصوصه شعريا وليس عرفانيا وتنصهر مع أسلوبه عبر التأمل والكتابة والتشخيص. فكان ابن عربي حاضرا في نص التجليات شخصية مبجلة مقدسة وهذه إحدى القرائن الدالة على فعل التناص.

يغدو تمحيص خطاب التجليات من منظور التناص، ووفق قراءة متاخمة للخطاب الصوفي ليس بالأمر السهل على الفهم، لأنه يقودنا إلى استعصاءات حكائية وأسلوبية تنزع غالبا إلى خلق مناخ مستغلق دون واسطة أو مسافة، فهو يحتوينا من دون أن نعرف كيف! وكل محاولة لفهمه من قبلنا تصطدم بعقبات جديدة ، ومن أجل الإجابة فإنه علينا البرهنة على مقصدية الكتابة والتناص عند الغيطاني على صعيد المنجز النصي لا على صعيد الأقوال المصرح بها فحسب، وبأمثلة تكون من شواهد الإدانة، بدءا من تلك العناوين التي تنسجم بالضرورة مع هذه النقلة النوعية لمؤلفات الكاتب ونصوصه، فهي تارة تفي وحدها للقول من دون لبس بـ" استيراتيجية الكتابة والتناسخ" فكتاب التجليات -موضوع بحثنا- يستدعي نصا غائبا أساسيا هو " كتاب التجليات" لمحي الدين بن عربي ويمكننا أن نقوم بتوضيح إضافي بخصوص هذه الصلة بين الكتابين في جدول سيكون بمثابة الهيكل البنائي الحواري(معمار النص)[13].

التناص الشكلي (معمارية نص التجليات)

كتاب التجليات (ابن عربي)	الصفحة	كتاب التجليات (جمال الغيطاني)	الصفحة
تجلي الإشارة من طريق السر تجلي نعوت التنزه في قرة العين تجلي تنزل الغيوب على الموقنين تجلي الإشارة من عين الجمع والوجود	415	تجلي الفراق/ تجل ساطع/ تجلي التمام/ شرح ذلك التجلي	11
تجلي الأنية من حيث الحجاب والستر تجلي أخذ المدركات عم مدركاتها الكونية تجلي اختلاف الأحوال	419	تجلي المستحيل/ تجلي الأماني/ تجلي الانتصار/ تجل يقيني/تجلي المحاولة	15
تجلي الالتباس	423	تجلي الكدد/ تجل مغربي/ تجلي	21

تجلي رد الحقائق تجلي المعية/ تجلي الفطرة/ تجلي السريان الوجودي/ تجلي الرحموت تجلي المجادلة/ تجلي الرحمة على القلوب		الأرض والزمان المتغير/ تجل غامض تجلي الحزن/ تجلي الشهيد	
تجلي الجود/ تجلي العدل والجزاء/ تجلي السماع والنداء/ تجلي السبحات المحرقة/ تجلي التحول في الصور/ تجلي الحيرة/ تجلي الدعوى / تجلي الإنصاف/ تجلي معرفة المراتب	425	التجليات الديوانية/ بحر البداية/ تتميم أول /تتميم ثان/ فصل/ من مدائن التجليات/ إفصاح/ فائدة/ تتميم/ وصل /شرح/ الديوان	40
تجلي المقابلة / تجلي القسمة/ تجلي الانتظار/ تجلي الصدق/ تجلي التهيؤ/ تجلي الهمم/ تجلي الاستواء/ تجلي الولاية/ تجلي المزج/ تجلي الفردانية/ تجلي التسليم/ تجلي نور الإيمان/ تجلي معارج الأرواح/ تجلي ما تعطيه الشرائع/ تجلي الحد/ تجلي الظنون/ تجلي المراقبة/ تجلي	429 431	تجليات الأسفار/ السفر الأول/ سفر الميلاد/ حقيقة/ بيان/ إشارة/ التأهب/ فصل/ ريحانة من سفرنا الأول/ إطلالة/ زمزمة/ وصل/ حقيقة/ تجلي السفر/ وصل السفر/ تنبيه/ السفر القصي/ أسفار الميلاد	45 60
تجلي الإطلاع/ تجلي تارة تارة/ تجلي الوصية/ تجلي الأخلاق/تجلي التوحيد/ تجلي الطبع/تجلي منك وإليك/ تجلي الحق والأمر/تجلي المناظرة/	435	أسفار الغربة/ حقيقة/ دمعة/ سفر الإبدال/ سفر خاطف/ تلقين/ سفر الموجودات/ يامن تقضي/ النبوءة/ التمهيد/ تجلي الوجوه المتتابعة/وصل في فصل	76
تجلي لا يعلم التوحيد/ تجلي نقل التوحيد/ تجلي العلة/ تجلي بحر التوحيد/ تجلي سريان التوحيد/ تجلي جمع التوحيد/ تجلي تفرقة التوحيد/ تجلي توحيد الفناء/ تجلي توحيد الخروج/ تجلي التوحيد/	439	ملتقى خاطف/ وصل في وصل في وصل/درس/ نشوء/ الحيرة/ واقعة/ تفسير/ ماذا لو/ سلام/ سفر إلى البدايات والنهايات/ تعاقب الرؤى/ ما كان، ما سيكون/ تجلي الوصل/ التنقل والترحال/ تجلي سرياني/ وصل في وصل/ خاطرة	143

تجلي العزة/ تجلي النصيحة/ تجلي لا يغرنك/ تجلي عمل في غير معمل/ تجلي الكمال /تجلي خلوص المحبة/ تجلي نعت الولي/ تجلي بأي عين تراه/ تجلي من تجليات الحقيقة/ تجلي تصحيح المحبة/ تجلي المعاملة/ تجلي كيف الراحة/ تجلي حكم المعدوم/ تجلي الواحد لنفسه	449	المواقف/ موقف التأهب/ موقف الظمأ/ من أسرار هذا الموقف/ موقف الحنين/ تجل عابر/ موقف اللقاء والتلقي/ موقف كان وسيكون/ موقف الندم/ موقف النجم/ موقف الشدة/ موقف الجمع	254
تجلي من أنت ومن هو/ تجلي الكلام/ من تجليات الحيرة/ تجلي اللسان والسر/ تجلي الوجهين/ تجلي القلب/ تجلي خراب البيوت	451	السفر الثاني/ مدرج/ مقام الاغتراب/ وصل في فصل/ رجعى إلى ذلك المقام/ الوصل الأول من هذا المقام/ فصل في وصل/	382
من تجلي الفناء/ تجلي الرؤية/ تجلي الدور/ تجلي الاستعجام/ تجلي الحظ/ تجلي الأماني/ تجلي التقرير	453	خاتمة هذا المقام/ مقام الضنا/ مقام القربى/ مقام الحزن/ سريان بين مقامين/ مقام الجوى	496
تجلي نكث المبايعة/ تجلي المعارضة/ تجلي فناء الجذب/ تجلي ذهاب العقل	455	السفر الثالث/ حال الوداد/ تلقين/ رقائق/ النكس/ جال الفوت/ حال الجهات الأربع/ حال الوداع	815

إن هذه الأدلة الأولية - وغيرها وفير- المستخرجة من خطاب التجليات والمثقلة كنتيجة لعملية الامتصاص والتحويل الجذري أو الجزئي للعديد من المقبوسات لدى ابن عربي كما أسلفنا الذكر في الجدول، إضافة إلى تفاعلات أخرى بدا لنا أنه من المناسب أن نستمع إلى هسيسها كونها منطلقات العبور إلى ميدان الدلالات على المستوى الصوفي، أو بتعبير مغاير التكوين الاركيلوجي لنص " التجليات".

التمظهرات التناصية:

لن نتساءل في جنبات هذا العنصر عن سبب قيام الغيطاني بالتناص مع نص معين تحديدا، إذ يحسن أن نتجاوز هذا الطرح حتى لا نقع في إشكالية سحيقة الغور ولا تقبل الاختزال، والأحرى أن يكون بحثنا ليس في أصول النص، بل في انفتاح الكاتب على الخطاب الصوفي بغية مساءلة مشهد تعالقه معه، ويهمنا من هذه التخريجات - رغم طابعها التجريدي العام- ما له علاقة باللغة الأدبية في تقاطعها مع اللغة الصوفية، حتى يتسنى لنا متابعة سفر النص بين غموضه وبياضاته، كما أن الإضمار والإخفاء والمحو والإيحاء وغيرها من

لعبة طمس البدايات يضمن للنص سيرورته واستمراره ويجعل من التداخل النصي" نصا لانهائيا على حد تعبير بارت"[14] وحتى تكون هناك فرصة لقراءة أكثر تدقيقا وتعميقا فإنه يمكن النظر إلى نص التجليات وفق قراءة تناصية منحصرة في نمطين أساسين من التناص، كما أشار الباحث سعيد الوكيل[15] تناص عفوي تغيب فيه القصدية وتناص قصدي واضح المعالم. وفيما يلي بعض من التفصيل.

تناص قصدي يعتمد الوعي على نحو من الأنحاء.

إن صياغة خطاب التجليات يشير إلى نصوص أخرى لا يمكن تحديدها تحديدا كاملا يصل إلى درجة التنصيص، ويجب أن نترك الأمر للمقبوسات لتقول كلمتها وتعبر بحرية أكبر عن نفسها ثم نحاول شرح هذا التداخل النصي في أبعاده المترامية وفي الجانب التكويني لفن الكتابة تجربة ومغامرة، حيث يتفاعل التاريخ والواقع والأسطورة تفاعلا يجعل من هذا التخييل " كتاب التجليات" ينسج ذاته مما يزكي فرضية كون الغيطاني يتوسل باللغة الصوفية لخدمة الكتابة لا العكس كما تلوح لنا بعض النماذج المبتورة.

وقد يتوسع " التناص" من طريق المعالجة أو الصياغة، وتستوقفنا التجليات في شكلها الفني مبعثرة أحيانا ومنسجمة، فلا غرابة مادام أنها منجذبة إلى الكشف والتجلي، وكأن الكتابة ليست طوع المبدع، إنما تملى عليه ويصادفنا هذا الأمر عندما يلمح إلينا الراوي بقوله:" عند هذا الحد .. بدأت أتلقى ما يملى علي، فأكتبه بلا مجادلة وكان الأمر كذلك"[16] ومن ثم نفهم أن اللاوعي يمارس سلطته ضمن أفق طرحه تصور ابن عربي بالكامل في « الفتوحات المكية" وهو فكرة الكتابة أمر إلهي[17] ولا يمكن أن يفهم أنه وحي يوحى.

يبدأ الغيطاني من خلف صوت الراوي المهيمن في التجليات بإشارة خاطفة توضح لنا جانبا من أهم الأفكار الأساسية التي وردت عند ابن عربي، حيث يمكن اعتبارها دليلا قاطعا على أن أسلوب الكتابة يتماشى تماما مع أسلوب المتصوفة حتى يخدم غرضه الخاص من مثل " الفيض الإلهي" المنزل على الخواص وأنهم مأمورون بإذاعته وتبليغه ليس لكل الناس وإنما لأهل الطريق، فهل ينتهي بنا هذا العنصر إلى اعتبار خطاب التجليات "فيض أدبي" يمارس على متلقيه نوعا من الطمس والحجب حتى يصل إلى درجة الفيض الإلهي، ومن ثم يرتب وضعية قلب شامل لمسلمات الرواية بهذا التتويج، يقول الراوي:

" هذا كتاب لا يفهمه إلا ذوو الألباب وأرباب المجاهدات، أما إذا أظهر البعض استغلاق الفهم فإنني أتلو: قال فما خطبك يا سامري قال بصرت بما لم يبصروا به[18].

هذا التصريح وإن كان يكشف ملابسات انفتاح الغيطاني على الخطاب الصوفي " باعتباره خطابا مارقا ينفلت من المعايير الشرعية عقديا والمعايير الفنية جماليا"[19] فإنه يدل على ضرب من المشاهدة الذي يلازمه الغموض، ولكي يكتمل الخطاب استغلاقا يبادر الغيطاني إلى توظيف الآية التي تشير إلى قصة السامري في سياق يبدي نوعا من العرفان المخصوص الذي مرده إلى التجلي، ويتحقق التناص هنا على مستوى القصص القرآني.

وسيذكرنا هذا بقصة " سيدنا موسى" عليه السلام مع بني إسرائيل، فافتتان قومه بعد أن غادرهم لميقات ربه حيث كان السامري قد قبض من أثر الرسول (جبريل) قبضة فنبذها في العجل، فخار فعكف قوم موسى له

عابدين، لكن عندما نلمح خطاب الراوي " أما إذا أظهر البعض استغلاق الفهم أو الملامة"، فإنه يشبه النص بالتجلي الصوفي تأكيدا لقيمة إتباع الأثر، أي اقتناص الآية[20] من سياقها إلى سياق مخالف.

فهذا الاتكاء على الآية يصنع " التناص" ولعلنا نلمح هذا حين نقرأ مع ابن عربي في كتابه " الأسفار عن نتائج الأسفار" وهو من أهم المتصوفة الذين يتحاور معهم الغيطاني نصيا فيقول:" لما رجع موسى إلى قومه وجدهم قد فعلوا ما فعلوا، ثم رد وجهه إلى السامري فقال له ما خطبك، فقال السامري ما رآه من صورة الثور.. فلذلك صنعت لهم العجل وعلمت أن جبريل ما يمر بموضع إلا حيي به لأنه روح، فلذلك قبضت من أثره فنبذتها في العجل فخار، فما فعله السامري إلا عن تأويل فضل وأضل"[21].

وبالتالي فهناك أوجه عديدة لتأويل هذا الموقف من " الغيطاني" يمكن ترجيحه أنه " باطني في أسراره ورموزه التي ترتبط بالحقائق الإلهية التي لا يدركها إلا قلب العارف"[22] وظاهري في سرد الأحداث التي تضمنها كتاب التجليات ونعني أن النص مسطر بخطوط من المعنى أفقية وأخرى عمودية، فهذه الأخيرة هي حكم السر في ذات الراوي أما الأفقية فهي مقتربة من اللغات الواصفة للمعطى الخيالي، وعلى هذا لا يكون إدراك باطن هذا النص إلا بالمعرفة الصوفية والكشف، أو كما يقول أهل الطريقة على قدر الاستعداد يكون الكشف، وأظن أن تضمين هذه الآية جاء في قيمتها الإخبارية فحسب، لأنه لو رجعنا إلى التفاسير فهي ترشدنا إلى تفسير مغاير تماما، وقد أشار ابن عربي كما في القول المدون أعلاه إلى أن السامري (ضل وأضل) وليس بوسعنا أن نسقط نفس الموقف هذا على " الغيطاني" لأننا نعتبره تداخلا نصيا عابرا مع اختلاف الدواعي والتفاصيل حيث يعلن أنه مثل الذي " لبس جبة المريد" يرى الحقائق التي لا تنكشف إلا بالمجاهدة.

لكن إذا أردنا أن نتساءل عن التناص مع نصوص ابن عربي فسنميط اللثام عن " مناجاة قاب قوسين"[23] لنجد التخوم القصوى أو بصمات الغيطاني التي حولت نص ابن عربي الصوفي رؤية وأسلوبا إلى خطاب سردي وشعري فهذا الانعطاف لا يمكن أن يوصف إلا بالمغامرة الكتابية.

يكتسب افتراضنا قوة حينما ندعمه بنص صريح من خطاب التجليات يقول الراوي:" لماذا أنأى؟ لكم في معراج المصطفى ما فيه الكفاية في هذا الباب ، أعني بعد المسافات مع الزمن القليل، لذا يبدو لي وقتي الذي قضيته حافا باللوح المحفوظ كمروق ظل طائر فزع على وريقة شجر خريفية"[24].

فهذا الانعتاق الذي حققته الكتابة بإلغائها مفهوم الزمن واعتمادها آلية التناص ليست محصورة في العلامات اللغوية محدودة الجوانب دال/ مدلول/، بل تنبسط وتتقاطع مع أفق الخيال والعالم والملكوت الأعلى لإعادة أنتاج السر الصوفي (التجلي) سرديا، ولا نملك إلا أن نسوق هذه التوشية كاملة يقول الراوي:" حسبي وكفى، الخوض هنا خطر، لو فتحت فيه ستثور فتن فعذرا"[25]. وأمثلة عديدة لا يسع المجال هنا لتوضيحها فهي تتطلب بحثا منفردا.

خاتمة

لقد عرضنا هذه النماذج لتسليط الضوء على ظاهرة "التناص" في مسار الكتابة السردية، وكأن المقصود بهذه التقنية الفنية إشباع النص بتضمينات منفصلة أو متصلة الروابط الاسنادية، وهذا الافتراض النظري هو بلا شك له مغزى يعكس موقف الروائي جمال الغيطاني من الثقافة العربية الإسلامية بتراثها الصوفي

خصوصا، فنقاط التمركز في النص تتمدد في تشكيل جمالي تستحضر فيه لغة (القرآن الحديث الشعر المتون الصوفية ..) ومفاد هذا الترصيع ربما يعود إلى مهنة تصميم السجاد الإيراني التي امتهنها الكاتب في صغره وانعكست فنياتها عند تدوينه لنص التجليات.

نتساءل الآن؟ هل نكون من خلال وقوفنا عند التناص وبناء على عينات متجاورة ومتمازجة حاكى فيها الغيطاني تراثا دينيا وأدبيا تخلينا عنه، نكون قد كشفنا النقاب عن فعاليات هذه الظاهرة الأدبية وتقنياتها، ربما لا وإننا نظن أن الأمر يحتاج إلى توضيح وتدقيق وما المسألة إلا معيار ومقدار، فالنص يغدو حاملا لصفة الرواية التي وفرت مسلكا للإفلات أو الانتصار على محدودية الزمن، لأنه ينزع إلى امتلاك شفرات الخطاب الصوفي أمام وضعية التنافر الشديدة بين المعقول واللامعقول.

[1] - محمد خير البقاعي، آفاق تناصية. الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، (د،ط)، 998ص: 66

[2] - جوليا كريستيفا، علم النص. تر: فريد الزاهي، دار توبقال، المغرب،1991 ص: 26

[3] - صبري حافظ، التناص وإشاريات العمل الأدبي. عيون المقالات، دار قرطبة، المغرب، ع 2/ ، 1986ص: 80

[4] - يمكن الرجوع إلى : أحمد مطلوب، معجم مصطلحات النقد العربي القديم، مكتبة لبنان، ناشرون،2001، ط1.

[5] - الخطيب القزويني. -الإيضاح في علوم البلاغة. شرح وتعليق: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتاب الحديث، الكويت،(د.ت) ج06،ص: 136

[6] -يمكن الرجوع إلى ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، تحقيق محمد قرقزان، دار المعرفة، بيروت، 1988، ص: 1058/1038، كما أن أغلب التعريفات نجدها مفصلة في معجم مصطلحات النقد العربي القديم أحمد مطلوب، السالف الذكر

[7] - عز الدين المناصرة. علم التناص المقارن، نحو منهج عنكبوتي تفاعلي، دار مجدلاوي للنشر، عمان، ط1، 2006، ص: 227

[8] - عز الدين المناصرة. علم التناص المقارن، مرجع سابق، ص:177

[9] - سعيد يقطين، الرواية والتراث السردي. المركز الثقافي العربي، المغرب، ط1 1992، ، ص: 89

[10] - جمال الغيطاني. جدلية التناص. مجلة، عيون المقالات المغربية، (د،ت) ع 02/ ص: 149/147

[11] - إبراهيم فتحي. الخطاب الروائي والخطاب النقدي في مصر. الهيئة المصرية العامة للكتاب، (د.ط)، (د.ت)، ص: 114

[12] - ن،م،ر،س ، ص: 115

[13] - ورد هذا المصطلح (المعمارية)عند الباحث المغربي سعيد يقطين ويعني صورة الجنس الأدبي الذي يبرر من خلال البناء الفضائي للنص/ ينظر الرواية والتراث السردي، مرجع سابق ، ص: 22 ويشير في نفس هامش الصفحة عن أول من استعمل هذا المصطلح وهو:

G ,Genette. Introduction a l'archi texte in : Théorie des, genres,seuil, 1986. paris .

[14] R, Barthe, le plaisir du texte, ed : seuil, paris, , 1973. p : 59

[15] - سعيد الوكيل، ، تحليل النص السردي. معارج ابن عربي نموذجا. الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1998، ص: 97

[16] - التجليات. الرواية، ص: 649

[17] - ينظر نص رسالة " الولاية والنبوة" عند محي الدين بن عربي. تحقيق ودراسة: حامد طاهر، مجلة عيون المقالات المغربية، ع 3، ، ص: 23

[18] - التجليات ص: 07

[19] -- أحمد بوزيان. ، الأنا الآخر والخطاب الصوفي. كتابات معاصرة، ع 63، 2007ص: 77

[20] - سورة طه الآية 93

[21] - محمد شهاب الدين العربي. 1997 رسائل ابن عربي. دار صادر، بيروت، ط1، ، ص: 494

[22] - سحر سامي. 2005 شعرية النص الصوفي في الفتوحات المكية. الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ، ص: 190 .

[23] - محمد شهاب الدين العربي. رسائل ابن عربي. مرجع سابق، ص: 203

[24] -- التجليات. الرواية، ص: 509

[25] -التجليات.الرواية، ص: 508